مقدمة المؤلف
في الطبعة الأولى

إذا ما قَصَرْنا البحث في تاريخ الفلسفة على النتائج الوضعية التي يُمْكِنُ تطبيقها على احتياجات زماننا مباشرةً وَجَبَ أن يُعابَ موضوعُ هذه المباحث بكونه عقيمًا تقريبًا، وأَعُدُّني أولَ من يعترف بأنه لا يُوجَدُ ما نتعلَّمه، أو نتعلَّمه تقريبًا من ابن رشد، ولا من العرب، ولا من القرون الوسطى؛ وذلك أن المُعْضِلَات التي تَشْغَلُ بال الإنسان في الوقت الحاضر، وإن كانت عينَ التي ساورته في كلِّ زمانٍ من حيث الأساسُ، تُبْصِرُها خاصةً بعصرنا من حيث الشكل الذي تَظْهَر به في أيامنا، وهي من الخصوصية بعصرنا ما لا نَجِدُ معه غير قليلٍ إلى الغاية من الحُلُول القديمة التي لا تزال صالحةً للتطبيق؛ ولِذا لا يَجُوز أن يطالب الماضي بغير الماضي نفسِه.

وقد ارْتَفَعَ شأنُ التاريخِ السياسي منذ كُفَّ عن البحث فيه عن دروس الكياسة والأخلاق، وقُلْ مِثْلَ هذا عن تاريخ الفلسفة الذي تقوم فائدته على صورة تطورات الذهن البشريِّ المتعاقبة التي تُسْتنبط منه أكثر مما على المعارف الوضعية التي تُسْتَخْرَج منه.

وصفةُ القرنِ التاسع عشر الفارقةُ هي أنه أقام المنهاجَ التاريخيَّ مقامَ المنهاجِ العَقَديِّ في جميع الدراسات الخاصة بالذهن البشريِّ، وعاد النقدُ الأدبيُّ لا يكون غير بيانٍ لمختلف أشكال الجمال؛ أي: عَرْضٍ للطرق التي حَلَّ بها مختلفُ أُسَرِ الإنسان وأجياله مُعْضِلَة الجمال، وليست الفلسفةُ غيرَ صورةِ الحلول المقترحة لفكِّ المعضلة الفلسفية، وعاد لا يَنْبَغي لعلم اللاهوت أن يكونَ غيرَ تاريخٍ للجهود التِّلْقَائية التي يحاول بها حلُّ المعضِلة الإلهية، والواقعُ أن التاريخ هو الشكل اللازمُ لعلم كلِّ ما هو خاضعٌ لسُنَن الحياة المتقلبة المتعاقبة، فعلمُ اللغات هو تاريخُ اللغات، وعلم الآداب والفلسفة هو تاريخُ الآداب والفلسفة، وكذلك علمُ الذهن البشريِّ هو تاريخُ الذهن البشريِّ، لا تحليلُ دواليبِ الروحِ الفرديِّ، ولا يَنْظُر علمُ النفس إلى غير الفرد، وهو يتأمله مجرَّدًا مطلقًا كموضوع دائمٍ مطابقٍ لنفسه دائمًا.

والشعورُ، في نظر النقد، يجْرِي في الجنس البشريّ كما في الفرد، ويَكُون له تاريخُه، ويقوم أعظمُ تقدم في النقد على إقامة مَقُولَة التحولِ مقامَ مَقُولَة الوجود، وعلى إحلال مبدأ النسبيِّ محلَّ مبدأ المُطْلق والحركةِ محلَّ السكون، وكان كلُّ شيء يُعَدُّ في الماضي موجودًا، فيَدُورُ البحث حول الفلسفة والفقه والسياسة والفن والشعر على وجهٍ مُطْلَق، والآن يُعَدُّ كلُّ شيء في طريق التحول، ولا يَعْني هذا أن السَّيْرَ والنشوءَ لم يَكُونا سُنَّةً عامة كما في الوقت الحاضر، فالأرضُ كانت تدوُر قَبْل كوبر نيك وإن لم يُشْعَرْ بحركتها، وتَسْبقُ الفَرْضِيَّاتُ الكُنْهِيَّةُ فَرْضِيَّاتِ الحوادث دائمًا، ويَكُون التمثالُ المصريُّ الجامدُ اللاصقةُ يداه بالرُّكبتين سابقًا لازمًا للتمثال الإغريقي ذي الحيوية والحركة.

فمن وِجهة نظر علم النقد تَرَى في تاريخ الفلسفة أنه يُبْحَثُ عن التاريخ أكثر مما عن الفلسفة حَصْرًا، ولا مِراء في أن الفلسفة العربية أمرٌ واسعٌ في حَوْلِيَّات الذهن البشريِّ، ولا يجوز في عصرٍ طريفٍ كعصرنا، أن نَمُرَّ من غير أن نَرُدَّ إلى هذه الحلقة من المأثور كل اعتبارٍ لها، ومع ذلك فلا بُدَّ من التسليم مُقَدَّمًا بأن هذه الدراسة لن تُسْفِرَ -تقريبًا- عن نتيجةٍ يُمْكِنُ الفلسفةَ الحديثة أن تُسِيغها مُنْتِفِعةً، ما لم تكن نتيجةً تاريخية، وليس العِرْقُ السامِيُّ هو ما ينبغي لنا أن نطالبه بدروسٍ في الفلسفة، ومن غرائب النصيب ألا يُنْتِجَ هذا العِرْقُ؛ الذي استطاعَ أن يَطْبَع على بدائعه الدينية أَسْمَى سمات القوة، أقلَّ ما يَكُون من بواكيرَ خاصةٍ به في حَقْلِ الفلسفة.

ولم تَكُن الفلسفةُ لدى الساميين غير استعارة خارجية صِرْفة خالية من كبير خِصْبٍ، غيرَ اقتداءٍ بالفلسفة اليونانية، ومِثْل هذا يُقال عن فلسفة القرون الوسطى، وليست القرون الوسطى البعيدةُ الغَوْر، البالغةُ الابتكار، الوافرةُ الشِّعر في صَوْلة حماستها الدينية، غيرَ تَحَسُّسٍ في الظلام طويلٍ، غيرَ تَلَمُّسٍ واسعٍ في ميدان الثقافة العقلية، رجوعًا إلى مدرسة الفكر النبيل العظيمة؛ أي: إلى القرون القديمة.

ومن البعيد أن يكون عصرُ النهضة -كما قِيلَ- ضلالًا في الذهن البشري التائه وراءَ مَثَلٍ أجنبيٍ عالٍ؛ بَلْ عَوْدٌ إلى مأثور الإنسان المتمدن، ولِمَ يُلَامُ عصرُ النهضة والأزمنةُ الحديثة على صنعهما، عن بصيرةٍ ودراية، ما كانت تصنعه القرون الوسطى بلا نَقْد؟ وهل

يجْدُر تَفْضِيلُ دراسة أرسطو وَفْقَ ترجمات ممقوتة على دراسته في النصوص الأصلية؟ وهل يناسب تَفْضِيلُ معرفة أفلاطون وَفْقَ شروح تِيمِه الرديئة، أو وَفْقَ شواهدَ مَبْتَذلةٍ، على دراسته في مجموعة آثاره؟ وهل يَلِيقُ تفضيلُ العِلْم بأُوميرُس في دِكْتِيس ودارِس على مطالعة الإلياذة والأوذِسَّه؟

إن الشرقَ السامي والقرون الوسطى مَدِينان لليونان بكل ما عندهما من الفلسفة ضبطًا؛ ولِذَا فإذا ما دار الأمرُ حول اختيار حجةٍ فلسفية لنا في الماضي كان لليونانية وحدَها حَقُّ إلقاء دروس علينا، لهذه اليونانية الأصلية المُخْلصة في تعبيرها، الخالصةِ الكِلَاسية(١)، لا يونانيةِ مصرَ، ولا يونانيةِ سوريا، التي شُوِّهت بخِلْطٍ من العناصر الغليظة، وعلى العكس إذا ما أغضينا عن مطالبة الماضي بمذاهبَ، ولم نطالِبْه بغير الوقائع، فإن أدوار الانحطاط وتوحيدِ مختلف المذاهب والآراء وأدوارَ الانتقال والتحريفِ البطيء تكون أمتَع لنا من أدوار الكمال، حيث تلُوحُ في بعض الأحيان امِّحَاءُ بروزِ العبقريةِ الأصليِّ تحت كمال الشكل ومقياسِ الفكر الدقيق.

وقد بَدَتْ لي هذه الملاحظاتُ أمرًا ضروريًا لاتِّقَاءِ لومٍ على عنايتي البالغة بمذهبٍ عاد لا يُحَرِّك ساكنًا فينا، ولكنني وقد قُلْتُ عن تاريخ الذهن البشريِّ أعظمُ حقيقةٍ فُتِحَتْ لمباحثنا، أَجِدُ أن كل محاولةٍ لإنارة ناحيةٍ من الماضي تنطوي على مغزى واعتبار؛ أي: إن معرفة ما فَكَّرَ فيه الذهنُ البشريُّ من مُعْضِلةٍ أهمُّ من تكوين رأيٍ عن هذه المعضِلة، وذلك أن المسألة إذا ما تَعَذَّر حَلُّها كان عملُ ذهن الإنسان لحلِّها أمرًا تجرِيبيًّا له مُتْعَتُه، وأنه إذا ما افْتُرِض الحُكْم على الفلسفة بأنها ليست سوى جُهْدٍ أزليٍّ باطلٍ لتحديد ما لا حَدَّ له لم يُمْكِنَّا أن نُنْكِرَ -على الأقل- اشتمال هذا الجهد لدى النفوس ذواتِ الفُضُول على منظرٍ جديرٍ بأعلى انتباه.

---

(١) Classique.

وقد منعتُ نفسي على العموم من إظهار شعوري حَوْل المعضِلات التي يَسُوقني الموضوع إلى مَسِّها، أو إنني صنعتُ ذلك بما يُمْكِن من الاعتدال مقتصرًا على عرضي الدقيق لمُشَخِّصَات المذاهب وفَوَارقها، ونجِدُ شَبَهًا بين المذاهب في الفلسفة والأحزابِ في السياسة، ولا يَنْفَعُ المنهاجُ الشخصيُّ للمؤرخ الذي يُحَدِّث عن تنازع المذاهب والأحزاب لغير تزييف حُكْمِه في الغالب وإفساد ما لتصويره من التأثير، ومن شأن الحُكْمِ الانتقاديِّ أن يَنْفِيَ الحُكْمَ العَقَدِيَّ، وما يُدْرِيك أن دقة الذهن لا تقوم على غير الامتناع عن الاستنتاج؟

لاحِظوا جيدًا أن ذاك هو النقد، لا عدمُ الاكتراثِ ولا الارتيابيةُ؛ أي: إن الإنسان لا يكون مؤرخًا إلا إذا عَرَف أن يَتَمَثَّل في نفسه -مختارًا- مختلفَ أمثلة الحياة في الماضي كما يُدْرِكُ أصلَها ولكي يَجِدَها بالتناوب شرعيةً ومَعِيبَةً، جميلةً وشنيعةً، مُحَبَّبَةً وبغيضة.

وأَعُدُّني قد نَزَعْتُ من هذا الأثر أكرم نُصْحٍ إذا لم أذكُر أنني أقدمتُ على وَضْعِه بإشارةٍ من مسيو فكتور كوزان ومسيو فكتور لكلير، وهو على ما يُمْكِنُ أن يَبْدُوَ غيرَ أهلٍ للطف الذي شَجَّعَ به هذان المُفْضالان عليه، أطْمَعُ أن يُرَى اشتمالُهُ على نتيجةٍ ضئيلةٍ للحركة التي طَبَعَاها على دراسات تاريخ الآداب والفلسفة، وكذلك أَعُدُّني قد قَصَّرْتُ في أعَزِّ ذكرياتي إذا لم أذكر هنا أولئك اللذين كان من فضلهم إغنائي تاريخ الرُّشدية البادُويَّة ببعض الوثائقِ غير المطبوعة؛ أي: كُتُبِيَّ القديس مرقس بالبندقية: السيد الأبَ فَلَنْتِينِلِّي، وأستاذ الفلسفة بجامعة بادُو: السيد بَلْدَسَّار بُولي، والعالِمَ السيد صَمُوئيل لُوزَاتُّو، وغيرهم ممن حَمَلُوني على تقدير القِرَى الإيطالي.

وأخيرًا أجِدُ من الواجب أن أُعْرِب عن شكري لعُضْوَيْ أكاديميةِ مَدْريد؛ السيدين توما مُونُوز وجُزوِه دَلْفَا، اللذين نِلْتُ من الإسْكُورْيال بفضلهما نسخةً من وثيقة عربية بالغةِ الأهمية في الموضوع الذي يَشْغَلُ بالي.

ولم يَفُتْني أن أذكر في تعليقاتي ما أنا مَدِينٌ به للآثار الرائعة التي كانت فلسفةُ أرسطو موضوعًا لها بيننا، وأخَصُّ ما يُرَى مقدارُ ما انتفعتُ به من مباحث مسيو أُورِيُو في الفلسفة السَّكُلَاسِيَّة، ومن مباحث مسيو مُنْك في الفلسفة العربية واليهودية في القرون الوسطى.

وإذا عَدَوْتَ المقالةَ الجوهرية التي أَدْرَجَها مسيو مُنْكُ في «مُعْجَم العلوم الفلسفية» عن ابن رشد وَجَدْتَه قد جَمَع حَوْل هذا الشارح وآلِهِ وثائق مُمْتعةً كان يَنْشُرُها لو لم تُقْطَع أعمالُه العلمية بالحادث المشئوم، وبما أنني قُمْتُ بمؤلَّفي من وِجهةِ نظرٍ أخرى فإن من البعيد أن يَجْعَل أثري هذا أثرَه غير مفيد، ولن يُسْفِرَ أثري عن غير جَعْلِ أثره مرغوبًا فيه إذا وَقَع ما نَرْجو من عدم حرمان العلم نتائج حُق له أن ينتظرها من نَفْسٍ بالغةٍ تلك الأَلْمَعِيَّةَ وذلك الفضل المُجَرَّبَ[1].

(١) لقد أنجز مسيو منك بعد ذلك بعض ما وعد بنشره ثانية، مع إضافات مهمة، مقالته عن ابن رشد في «مقالات عن الفلسفة اليهودية والعربية»، باريس، ١٨٥٩.